

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الرابعة

نحمد الله - تعالى - حمدا كثيرا ، كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، ونصلى ونسلم على خاتم رسله وأنبيائه - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذه هى الطبعة الرابعة من هذا الكتاب مزينة ومنقحة ، بقدر ما تيسر لنا في زحمة من العمل ، وعديد من الشواغل ، التى لم تسمح لى بما كنت آمله من إلحاق بعض الفصول فيما يتصل بتاريخ علم الكلام ، و أبرز الرجال الذين أثروا في مسيرته ، وعن أهم معالم المكتبة الكلامية ، وعن بعض سمات البحث الكلامى في العصور المتعاقبة ، والمذاهب المتصارعة ، وشئون أخرى قد تسهم في إنجاز المهمة الأولى لهذا الكتاب ، مدخلاً يمهد السبيل أمام الراغبين في الدرس الكلامى ، من شدة المتخصصين أو عامة المثقفين ، أو الباحثين المبتدئين ، فيزيدهم أنسًا في طريق غير مأهول ، ويميط عن طريقهم من الأذى ما عساه يشبط الهمم ، أو يضعف الحوافز والميول ، لكنى قنعت بتصويب بعض المواضع ، وإضافة بعض التفاصيل هنا أو هناك . مرجئنا ما أشرت إليه من إضافات إلى طبعة لاحقة ، إذا أمد الله في الأجل ، وهياً لذلك الأسباب .

وعسى أن تلقى هذه الطبعة ما لقيته أخواتها من قبل ، وهى الطبعة الثالثة المصرية ، التى قدمتها « مكتبة وهبة » القاهرية ، وبذلت فيها جهدا جديدا على النحو الذى ذكرت آنفا - عسى أن تلقى من النجاح ما قدر لسابقتها ، وكانت قد صدرت - قبل هذه الطبعات الثلاث - في مدينة كراتشى من دولة « باكستان الإسلامية » الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، الذى تبين أنه يلبي حاجة أساسية من حاجات الجامعات الإسلامية ، التى تولى علم الكلام عناية متميزة ، وحاجات أقسام الدراسات الإسلامية والفلسفية في الجامعات الأخرى ، - بحمد الله . ولقى

أيضا ترحيبا واهتماما ، من المناخ الثقافى العام في عديد من البلاد العربية ، وغيرها ، فترجمه أحد زملاء إلى التركية ، وظهر منذ بضع سنين بمدينة استانبول - حرسها الله تعالى - ، ولكل كتاب قَدْرُهُ وقَدْرُهُ ، ومسيرته وأثره ، وهنّ كالأولاد - لا أذكر من صاحب هذا التشبيه في العصر الحديث - وقد سئلت عنهم فاطمة بنت الخُرْشَبْ قديما : أى أولادها أحب إليها ؟ فقالت : « هم والله كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ولكن صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ » . وليس هذا الكتاب بأول كتبى ولا أحدثها ، غير أنى لا أبرئ نفسي - وأنا الأب - من ميل خاص إليه ، وإعزاز زائد له . ولن أزال - بإذن الله - عازما على تجديد بنيته ، وإثراء محتواه ومادته . والله ولى التوفيق .

وحق علىّ في ختام هذه الكلمات أن أشكر السيد « حسين وهبة » - رزقه الله بركة أبيه - رحمه الله ؛ فقد أبدى حرصا مشكورا على إعادة إصدار الكتاب في ثوب جديد ، ورغب إلىّ في مراجعته وتنقيحه ، وهى مهمة غير يسيرة ، أعان عليها عزم شاب كريم من طلبتى ، هو الأستاذ حاتم يوسف - جزاه الله خير الجزاء - فقد نهض بالكثير منها ، وأذكرنى بما قمت به نحو أستاذى الأول فى علم الكلام ، الشيخ الدكتور على عبد المنعم عبد الحميد - طيب الله ثراه - حينما كان يعدّ - بالاشتراك مع الأستاذ الكبير الدكتور محمد يوسف موسى - كتاب إمام الحرمين « الإرشاد » للنشر ، في منتصف القرن الماضى بالقاهرة - رحم الله الجميع ، وجزاهم عن كاتب هذه السطور خير الجزاء ، وأجزل لهم المثوبة والعطاء ، وسائر شيوخنا ، وأبويننا ، وأصحاب الحقوق علينا ، وصلى الله وسلم وبارك في البدء والختام ، على خير الأنام . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

القاهرة في جمادى الآخرة ١٤٣٣ هـ

الموافق مايو ٢٠١٢ م

حسن الشافعى

الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ورئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وبعد :

فقد يكون من المناسب أن نقدم بين يدي هذا الكتاب كلمات قليلة عن مهمته ، ومحتواه ، وظروف إصداره ، وإن كان الكتاب كله مقدمة بين يدي علم الكلام ، وقديماً مَيَّزَ أسلافنا بين مقدمة العلم أو مبادئه ، ومقدمة الكتاب أو خطبته .

ومهمة الكتاب ، كما يدل عليها عنوانه منذ البداية ، هي أن يمهّد الطريق للراغبين في دراسة هذا العلم ، الذي عنى به علماؤنا ونظارنا الأوائل ، واعتبروه هو « الفقه الأكبر » ، وعلم « الأصول » التي يقوم عليها الدين الإسلامي ، بأحكامه العملية ، وآدابه الخلقية ، ونظمه الفقهية التطبيقية ، بل بثقافته وحضارته جميعاً . وهو يحاول أن يكون دليلاً لهؤلاء الدارسين في توجيههم شطر هذا العلم ، يشد على أيديهم ، ويكفكف من توجسهم وترددهم ، ويبث الأمل والطمأنينة في صدورهم ، ويرتاد لهم الطريق منبهاً على معالمه البارزة ، ومراحله الأساسية ، مذكراً إياهم بالأدوات والاستعدادات اللازمة لسلوك هذا الطريق ، على نحو يؤذن ببلوغ الهدف وتحقيق الغاية ، دون نزوع إلى الإفراط أو التفريط الذي جنى على بعض سالكيه من قبل .

وفي الكتاب نبرة ولاء لهذا العلم ، وثقة في مستقبله ، وإيمان وثيق بمهمته المتجددة في كل العصور ، وخاصة في عصرنا هذا ، عصر الصراع « الإيديولوجي » ، والحوار العقائدي ، والصحوة الدينية التي تكاد تنظم العالم بأسره . . . وللمسلمين منها - بحمد الله - نصيب وافر . غير أن الوعي العقائدي المنشود الذي يبعث جوهر العقيدة وهو التوحيد ، ويضع الأساس الفكري لنهضة

حضارية أصيلة في كافة مجالات الحياة ، ويبشر بإنسان جديد ، ويعيد زمام القيادة إلى يد الأمة المسلمة - لن يتحقق إلا بالعلم والعمل ، والعودة الجادة إلى منبع الثقافة الإسلامية وهو الكتاب والسنة ، في ضوء تراث الأئمة ، الذي ينتظم مجالات العقيدة والعمل جميعاً ، وعلى أيدي علماء ربانيين يرشدون هذه الصحوة ، ويحدونها إلى غاياتها النبيلة بإذن الله .

ولعل هذا الولاء ، الذي يعترف به كاتب هذه الصفحات ، لم يحل دون الموضوعية والإنصاف ، في محاولة تفهم الأفكار والمواقف ، وتقويمها والحكم عليها ، حيث لم يقنع الكاتب بمجرد التسجيل والوصف ، بل تجاوز أحياناً إلى النقد والتقويم ، والحكم والموازنة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والكتاب مكون من خمسة أبواب تتضافر وتعاون على تحقيق الغاية السالفة . فالباب الأول يهدف إلى التعريف بعلم الكلام وبيان مشروعية البحث فيه ، من خلال ثلاثة فصول أولها عن تعريف العلم ، وثانيها عن الأسماء التي عرف بها ، والأخير عن مشروعية الاشتغال به .

أما الباب الثاني فيعرض المسيرة التاريخية الطويلة التي قطعها هذا العلم ، ويصف معالمها الرئيسية في إيجاز واختصار بعنوان « نبذة عن تاريخ العلم » ، ويتعرض الفصل الأول منه لفترة النشأة خلال القرن الهجري الأول . ويليه الثاني مختصاً بعهد التدوين وظهور الفرق ، وفيه محاولة لتوزيع هذه الفرق في منظومة منطقية معينة ، بناء على مواقفها الأساسية . ثم يأتي الثالث فيتناول المراحل التاريخية التالية منذ القرن السادس تقريباً حتى الوقت الحاضر .

وفي الباب الثالث محاولة لتعريف « مناهج البحث في علم الكلام » وهي ناحية بالغة الأهمية في دراسة أي علم ، وتعرف طبيعته وخصائصه ، لم تنل عناية تكافئ أهميتها من المشتغلين ، ويختص الفصل الأول منه ببيان موقف المتكلمين من « الدليل العقلي » . والثاني يدرس موقفهم من « الدليل النقلی » . والثالث يتعرض لدراسة صيغ الاستدلال وصوره في علم الكلام .

ويعمد الباب الرابع - وعنوانه « فصول تكميلية » - إلى محاولة إكمال هذا التعريف المبدئي بعلم الكلام عن طريق بيان علاقاته بالعلوم المختلفة شرعية وغيرها ، مع التطلع إلى إمكاناته المستقبلية ، وذلك في الفصل الأول من هذا الباب . وفي الثاني تعريف موجز بالمصطلح الكلامي الذي هو أداة رئيسية للبحث والدراسة ، كما هو الحال في كل علم . وفي الفصل الثالث محاولة للتعريف بما يقابل علم الكلام في الأديان الكتابية وأعنى بها الشيولوجيا اليهودية والمسيحية ، مع الإلمام قليلاً بمدى إفادتها من علم الكلام . وذلك بحث مهم في ذاته ، وخاصة لمن لم تتيسر لهم أية دراسة مقارنة لأنظمة عقدية خارج البيئة الإسلامية .

أما الباب الخامس ، وهو الأخير : فقد قدمنا فيه نصوصاً مختارة تمثل طائفة من أهم الآراء العقائدية التي اعتنتها الفرق الكلامية العشر ، التي تعرضنا لها في الباب الثاني ، أملاً في أن يتذوق القارئ أسلوب المتكلمين في عرض أفكارهم ، ويتمرس - إلى حد ما - بهذا الأسلوب ، قبل الدخول في دراسة جادة لمحتويات هذا العلم ومسائله . وبالله التوفيق .

وبعد . . فإن الدراسات الكلامية قد ازدهرت وآتت بعض ثمارها في النصف الأخير من القرن الرابع عشر ، ولعل مرد ذلك إلى النهضة التي انتظمت مؤسسات التعليم الديني في فترة مقاومة الاحتلال الأجنبي والخلاص منه ، وإلى مشاركة أقسام الدراسات العقلية والإنسانية في الجامعات المدنية ، في اكتشاف الحلقات المفقودة والآثار المجهولة لتاريخنا الفكري ، وإلى الحركة الناشطة في مجال إحياء التراث ونشره ، وإلى التحدي الفكري الذي مثلته الثقافة الغربية والكشوف العلمية والمذاهب الفكرية الجديدة للعقلية المعاصرة . . إلى غير ذلك من العوامل التي تقتضي منا سعيًا حثيثاً إلى ربط شبيبتنا الناشئة بتراثهم الغني الزاخر ، ودينهم القائم على الحق والإنصاف ، المطابق للفطرة والموافق للعقل الصحيح الصريح ، الذي لا يتعارض مع النقل الصحيح . . كما أجمع عليه نظار المسلمين ، ونقله أبو الوليد

ابن رشد [٥٩٥هـ] في مطلع رسالته « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال »^(١). وذلك دون انغلاق أو جمود ، بل في سماحة وتفتح ، وحرص على الموازنة والحكم . . . تجعل كل ما يصلنا من أفكار عوّنًا لنا لا علينا ، وجزءًا أصيلًا من نسيج فكرنا ، دون إحساس بالنقص والدونية ، ما دمنا نرجع في ذلك إلى قاعدة فكرية ثابتة ، وعقيدة حنيفة راسخة .

وقد سبقت هذا العمل المتواضع أعمال كثيرة تتجه إلى الهدف نفسه الذي يرمى إليه ، ومنها « كتاب التوحيد » للشيخ حسين والي ، وكتاب « محاضرات في علم التوحيد » لشيخنا علي حسب الله ، ومقدمة كتاب « مناهج الأدلة » ، لأستاذنا الدكتور محمود قاسم ، و « علم الكلام وبعض مشكلاته » لأستاذنا الدكتور أبي الوفا التفّازاني ، و « عوامل وأهداف نشأة علم الكلام » لزميلى الدكتور يحيى فرغل - رحمهم الله جميعاً - وغيرها كثير والحمد لله .

وندعو الله - تعالى - أن يكون هذا الكتاب عوّنًا لمبتدئ أو هداية لحائر أو تشجيعاً لراغب ؛ فهو - سبحانه - ولي كل خير ومصدر كل نعمة ، وب نعمته تتم الصالحات ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

حسن الشافعي

(١) ابن رشد : فصل المقال ، ص ٣١ .